واجبات الآباء

والمربين فى أيام الحروب

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بوزارة المعارف

الواجبات المفروضة على الآباء والمربين فى أيام الأمن والرخاء كثيرة ، وهى فى أوقات العسر والبلاء أشد وأكثر وأوسع مدى. إنهم مسئولون عن تربية الأبناء تربية كاملة ليعيشوا عيشة كاملة ، مواجهين ماتأتى به الحياة من بضاعة كلها شدة وبأساء . وقساوة وضراء : يقف أمامها الضعفاء موقف المستسلم المأروم ، ويقابلها الأقوياء مقابلة الكمى الجسور .

وأكثر ماتحتاج اليه الأمم من مجهود الآباء والمربين إنما يكون فى الأوقات العصيبة لأنها تتطلب الإعداد السريع ، والتوجيه الحازم . وتتضاعف هذه الحاجة حينما تشتعل نيران الحروب ، لأنها تغير كثيرا من النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتمس مرافق الحياة وشؤون المعيشة ، وقد لا تدع شيئا صحيحا ، ولا أديما سليما . ولا مفر من لقائها بما يعالج قسوتها ، ويخفف حدتها ، ويقلل ضررها .

ورب ملاح ماهر ، اشتدت على سفينته الريح فى يوم عاصف ، وهاجت عليه الأمواج من كل جانب ، فاستفاد من العواصف ونجا من القواصف .

وليس فى الأزمات التى عرفها التاريخ مثيل لهذه الأزمات القائمة الآن ، الناتجة من الحروب الناشبة التى ابتدعها العقل البشرى الجبار ، وتفنن فى أساليبها القتالة ، ووسائلها الفتاكة ، ولم يمنعه حياء ولا خوف ، ولم يردعه ضمير ولا دين ، حتى امتد لهيبها فى الشمال والجنوب ، والشرق والغرب . وأحاطت دوائرها السوداء بالقطبين ، وبخط الاستواء . فاضطرب ميزان العالم ، وتأثرت نواحيه المختلفة . ولا مناص لنا من اجتياز هذه المرحلة بمثل ماتجتازها به أمة كريمة باسلة .

ولا بد والمربين فى هذا الموقف نصيب كبير ، وعليهم واجبات مضاعفة ، فى طليعتها أن يوجهوا جهودهم إلى تقوية العقيدة الوطنية فى نفوس الناشئين ، ولما كان مستقر هذه العقيدة — كمستقر الإيمان سواء بسواء — فى أعماق القلب ، لا فى أطراف اللسان ، كان عليهم فى النفوس بالاستمالة والإيحاء والاستهواء . لا بالقهر ، ولا بالأوامر والنواهى ، حتى تنموا طبيعيا كنمو النبات صادف أرضا خصبة وبيئة صالحة . والعقيدة إذا رسخت كانت أصلا ثابتا للفضائل الاجتماعية ، والاداب الفردية ، والسعادة القومية .

والحاجة ملحة فى الوقت الحاضر — وهو وقت الكفاح والنضال — الى بث روح الجهاد الحق فى نفوس الشبان . وليس الجهاد بمقصور على الذهاب الى ميادين القتال ، والاستعداد لملاقاة الأعداء ، بل يكون أيضا بتحصيل العلوم المفيدة ، والتمسك بالعقيدة الوطنية ، والتأدب بآداب الدين ، واحترام القوانين الوضعية وغير الوضعية ، وأداء الواجب أداء حقا بإتقان تام وطاعة خالصة ، والخضوع لسلطة الآباء وأولى الأمر والحكم خضوعا مطلقا ، لا تردد فيه ولا تمرد . وإلا سادت الفوضى وساء المنقلب " ولا رأى لمن لا يطاع " ولا يمكن أن يشب الشبان على حب الجهاد الوطنى ، إلا اذا مرنوا على هذه الأمور جميعها ، مرانا محكما حازما ، لا طيش فيه ولا تهور ، ووجدوا أن آباءهم وقادتهم وزعماءهم ومربيهم ، قد شغفوا حبا بهذا المبدأ المجيد ، وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم يبذلونها بسخاء وكرم : فى الدفاع ووسائله ، وفى التبرعات للجيوش التى تحمى البلاد ، وتصد الغارات ، وتعمل لإحياء مجد الوطن ورفع شأنه . وينفقونها برغبة ومحبة ، فى إنهاض المشروعات الوطنية : زراعية كانت أو تجارية أو صناعية . فهذه المشروعات هى ينابيع الحياة الفياضة ، المليئة بالنشاط الجم والخير العميم : يَرِدُها أبناء الوطن فينافسون لأجانب منافسة بريئة عادلة .

وإن إثما كبيرا أن يقصر الآباء فى تهيئة المشروعات ، وتهيئة الأبناء لها . اعتمادا من هؤلاء وهؤلاء على الوظائف الحكومية التى أصبحت محدودة قليلة العدد ، وأصبح الطالبون لها كثيرين لا يحصى لهم عدد . وهذا الاتجاه الخاطئ جعل الآباء يغدقون النعم على الأبناء ، ويغمرونهم بالأموال والمتع وألوان الترف ، وهم ما زالوا فى طور التنشئة ، فجرهم هذا الإفراط فى العطف عليهم ، الى ضعف المقاومة لما يلاقيهم فى مستقبل حياتهم من صعاب وشدائد ، وجعلهم يشعرون بحرية فوضوية ، ولا يستشعرون سلطة ولا حكما ، وهذا هو أصل العلة وأس الداء ، لأنه مكنهم من اللهو بلا رقابة ، وقادهم الى الهوى وصرفهم عن الجد . ولا بد من مقابلة هذه الحال بالشدة من جانب الآباء ، ولا أقصد بها الضرب بالعصا ، أو الجلد بالسياط ، لأن هذا اللون من التأديب يميت القلوب الحية ، ويكبت النفوس المتوقدة ، وإنما أقصد أن يحفظ الآباء سلطانهم على الأبناء ليستطيعوا إخضاعهم للأوامر عن حب واحترام ، وأن يقبضوا أيديهم عن النفقات الباهظة ، ليأخذوهم بشىء من الخشونة والشظف ، ويعدوهم لأيام المحن والبلاء .

وثمة ناحية هامة هى أن يعمل المربون على تقوية الروح المعنوية فى نفوس الطلاب وأساسها الإيمان بقضاء الله وقدره ، والاعتقاد الجازم بالفوز بعد الصبر وبعد العمل ، وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، وتفضيل الاستشهاد على النصر . كما كان المسلمون فى صدر الإسلام يفعلون . حتى إن بعضهم لم يقبل عند خروجه للجهاد — أن يدعو له المودعون بالرجوع معافى سليما . بل طلب إليهم أن يدعوا له بالشهادة فى سبيل الله .

ومن الخير للوطن والوطنيين أن يعمل الآباء والمربون على تهذيب الخوف عند الأبناء بالحيلولة بينهم وبين ما يثير الأخيلة الجامحة والخرافات الكاذبة التي تقذف الرعب في القلوب، وتدخل الذعر على النفوس. وأكثر ما تتولد هذه المخاوف حينما تكثر الاشاعات الكاذبة، والأراجيف الباطلة في أيام الحرب فتكون مدعاة إلى التضليل ووسيلة إلى الفلع.

ولقد لعن الله أولئك الذين يذيعون الأخبار السيئة المشوهة، وأنذرهم بالتنكيل بهم، وطردهم من البلاد في قوله تعالى:

"لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۞ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا".

ولهذا كان لزاما أن ننصح لآباء أبناءهم بالتروي والتثبت وإعمال الفكر والاستنباط فيما يسمعون من تمتن وأوشايات. وإلا تخبطوا، وساروا على غير هدى. وطارت عقولهم من الخوف، فلا شجاعة ولا بسالة.

والناس في حالات الذعر الذي يغطي على أفئدتهم: يتدافعون ولا يفعلون شيئا؛ ويموج بعضهم في بعض، ولا يهتدون سبيلا: "كالبحر يقذف أمواجا بأمواج".

محمد أبو بكر ابراهيم